أكذوبة مزمنة اسمها الاستقلال

علي كنعان*

■ ما أبدعته المقاومة اللبنانية في الجنوب يشبه الرؤيا الشعرية، وان كان حقيقة واقعية ملموسة شديدة الأثر والتأثير. انها مفصل تاريخي بليغ بكل معاني العبارة ودلالاتها. وهذا المفصل البطولي المشهود، لأول مرة في تاريخ العرب الحديث، يجعلني أضع يدي على قلبي المعطوب مخافة ان تودي بكل منجزاته الرائعة تلك الخلافات العصابية الدائرة، بدءا من الساحة اللبنانية وليس انتهاء بالعواصم العربية الخانعة... وانما تمتد ظلال الغيوم والتحركات المريبة من زوايا الذل والبغاء (المستورة) في قصور تلك العواصم حتى بيت الأفاعي في واشنطن. ذلك الصمود المظفر، الذي واجه به رجال المقاومة ومجاهدوها وشهداؤها قوات العدوان الصهيوني، جعل العرب جميعا يقفون وراء ضفتين متباعدتين لا جسور بينهما: جماهير الشعب المساندة للمقاومة والمتطلعة الى مواصلة النهج ذاته في معارك التحرر الوطني تقف في ضفة... وعلى امتداد الضفة الأخرى تقف الطبقة المهيمنة على مقدرات الوطن الكبير وثرواته، وهي تستمتع بامتيازات الخنوع أمام قوى الفتك والنهب والعدوان. وهؤلاء المتواطئون، بعد ان فاجأتهم الجماهير بمواقف الغضب والاستنكار، يحاولون توضيب الأقنعة لستر مخازيهم وركوب الموجة الصاعدة، ليصح فيهم قول المتنبي:

واذا ما خلا الجبان بأرضٍ
طلب الطعنَ وحده والنزالا

لكن الأمر المحير والمغيظ الى حد الريبة والاستغراب ان نفرا من المثقفين، وكنا نحسبهم في صفوف اليسار التحرري (العروبي الاشتراكي والعلماني، وربما الديمقراطي.. الى آخر السلسلة الذهبية المعروفة) هذا النفر العجيب يوشك ان يعلن موقفه صراحة بأنه مع العدو الصهيوني نكاية بحزب الله وحماس وكل تحرك عربي يتزيا بلبوس الدين، ولو كان من الضحايا والشهداء!

أهذه ظاهرة صحية تبشر بصحوة جديدة شفافة وبلا أقنعة، على مستوى الأمة، أم هي حالة مرضية مزمنة ستودي بنا الى التردي في مهاوي التناحر والوبال؟!

لم تكن المعارك العربية– العربية يوما في صالح الأمة وبناء مستقبلها المرتجى. لكن خمسة عقود أو ستة مرت ونحن ضحايا أكذوبة فظيعة اسمها الاستقلال، في حين كان ساداتنا وأولو أمرنا أتباعا وخدما صغارا في قلاع الشرق والغرب، وان اختلفت الأدوار والمهام والنسب والدرجات. حكومات ما سمي زورا وبهتانا «استقلال»، على تعددها، لم تستطع انجاز حلم التحرر الوطني البعيد المنال، بل بقينا ندور كبغال المعصرة وأعيننا معصوبة وأيدينا مشلولة وارادتنا مستلبة ومرهونة وراء البحار.

ما أنجزته المقاومة الاسلامية في جنوب لبنان، ومن ورائها الحاضنة الشعبية الكبرى، كان بشارة الاستقلال الحقيقي، ولقد طرحت سؤالا جارحا على جميع الأنظمة العربية، في مشرق الوطن ومغربه: «هل أوطاننا مستقلة فعلا؟ أم كان «الاستقلال» أكذوبة مزمنة؟! وأن بلادنا ما زالت طوال هذه السنين مرهونة للقوى الاستعمارية، من الابرة وحبة الدواء حتى القلم والدفتر والهاتف ومحطات البث، ومن خلجة الوجدان الشعرية حتى ارادة الأمة العليا؟! وهل كان رحيل الجيوش الأجنبية عن أرضنا أكثر من مناسبة احتفالية لتغيير أشكال الأقنعة وجنسيات الأحصنة؟!».

وأنا هنا على يقين مكلوم ان عبارة «مقاومة اسلامية» سوف تثير غيظ كثير من «المنظرين اليساريين والعلمانيين» الأشاوس في الصحف والشاشات العربية ومواقعها الالكترونية، المقنعة والسافرة معا، سواء بسواء. لقد خضت خلال الأسابيع الماضية مناكفات ومعارك دونكيشوتية مع عدد من الشعراء والمثقفين «الحداثيين»، وبخاصة عبر الرسائل الزاجلة (الانترنت)، وكم آسف للوقت الذي هدرته بلا جدوى! وقبل شهور صفعني أحد «المناضلين» بقوله: «التعامل مع اسرائيل أرقى وأفضل من التعاون مع جماعة حماس وأمثالها»! وكانت «حكمته الرشيدة» تقول: «عدونا حضاري وأغلبية سكانه ينتمون الى المستقبل، في حين ان الحركات الدينية، سواء كانت اسلامية أو غير اسلامية، هي ظواهر مرضية بلا أفق ولا مستقبل لها»!

ومع أني لست من المتحمسين ولا المعجبين بأولئك السادة الذين افتتحوا «دكاكين» سياسية في أسواق الدين الحنيف واتخذوا منه بضاعة للتجارة وسلّما للوصول الى كراسي الحكم، لكني أشعر وأرى ان الحركات والأحزاب القومية قد غرقت في مستنقعات الفساد والافساد التي صنعتها بأيديها، ولن تخرج من هذه المستنقعات الا الى الهاوية. كما ان الديمقراطية الأمريكية، سواء جاءتنا على الطريقة العراقية أو على الطريقة الليبية، تجعل زؤان البلد ـ كما يقول المثل الشعبي ـ أطيب وأفضل وأسلم من الحنطة المجلوبة من مزرعة مستر بوش والمنقوعة بألوان من السموم المعسولة...

ترى، بأي حق وبأي منطق وبأي ميزان للعدالة.. بل بأي هوان وطني وانحطاط أخلاقي، ينبغي علينا ان نستسلم بمذلة وخنوع لسعار أقطاب الرأسمالية المتوحشة حتى نحارب أبناء شعبنا في توجهاتهم وحركاتهم الاسلامية المتنامية التي ألصق بها بوش وعصابته صفة «الارهاب» و«الفاشية»؟! وكيف ننسى خلال أسابيع معدودات ان هول الدمار الذي خلفته آلة الحرب الصهيونية في لبنان يؤكد ان شعار «السلام» مع هذا الكيان العدواني أكذوبة أخرى أدهى وأشد فظاعة؟

لبنان البلد المحدود بمساحته، الكبير العظيم بشعبه الحر ومؤسساته الديمقراطية وانجازات مقاومته الاستثنائية، ليس موضوعا للفرجة ولا هو بحاجة الى التمجيد بقصائد المديح. انما علينا ان نتخذ من تجربة المقاومة المظفرة فيه دروسا لا تنسى للمستقبل وبناء مناعة الأمة والالتزام بنهج الكفاح الاستشهادي في كل بلد عربي آخر. ولكن السؤال الطافح بالمرارة: أين المشروع الفكري المستنير، على مستوى الأمة، الذي يستأنس بدروس المقاومة ويقتدي بها؟ ومتى ندرك قيمة الحرية وأهمية سيادة القانون؟ وكيف نتخلص من حمى النزعة الاستهلاكية الخانقة؟ ومن يقوى على تعليق الأجراس في أعناق القطط السمان المتورمة بعد ان تحولت الى ذئاب ضارية؟!

أسئلة كثيرة وهواجس شتى لا تخلو من مخاوف أشبه ما تكون بالكوابيس... انما أقساها وأشدها مرارة يدور حول ما أنجزته المقاومة اللبنانية. هل نسعى جاهدين، ومن ورائنا قوى شيطانية غاشمة، الى احباط الأمل المشرق وتخريب ذلك الانجاز التاريخي العظيم وتبديده بكل نذالة واستهتار؟! أين تربية المقاومة.. واعلام المقاومة.. واقتصاد المقاومة.. وثقافة المقاومة.. وفكر المقاومة؟

اذا كانت لا تعنينا دروس المقاومة الاستشهادية المذهلة في فلسطين ولبنان وبعض مدن العراق، بعيدا عن أسلوب الموساد في تقطيع الرؤوس وتفجير المساجد والأسواق... واذا كانت السنون الخمسون الماضية غير كافية لتحقيق الاستقلال الجدي وانجاز مهام التحرر الوطني كاملة، فمتى نصحو ونستكمل وعينا ونسترد ارادتنا المستلبة وحريتنا المغدورة وكرامتنا الجريحة؟

والسؤال الأخير: هل يحق لشاعر، يقترب من حافة الخرف أو الجنون مثلي ـ كما بشرني أحد «الظرفاء» المشفقين على شيخوختي ـ ان يحلم ويتحدث ويكتب في الشأن الانساني والوطني والقومي؟ أم ان ذلك امتياز شبه سماوي لا ينبغي ان يقاربه الا الآلهة المستحدثة في مطابخ الاستبداد وملائكتهم المقربون؟!

* شاعر وكاتب من سورية

لماذا يرفض الأكراد العلم العراقي؟

يحيى اليحياوي*

عندما قرر مسعود البارزاني، رئيس اقليم كردستان العراق، انزال العلم العراقي من فوق المباني الحكومية التابعة للاقليم (أو للحكومة المركزية المتواجدة هناك)، علل للقرار بالقول بان «العلم الحالي ارتكبت تحت ظله كل المجازر وعمليات القتل الجماعي... لذلك، من المستحيل رفع العلم في كردستان، لانه يعبر عن فترة من أشد الفترات سوادا في تاريخ العراق».

وعندما أعلن المالكي (رئيس وزراء العراق المحتل) بان «علم العراق هو العلم الوحيد الذي يجب ان يرفع على كل أرض العراق حتى قيام البرلمان باتخاذ اجراء آخر»، رد عليه البارزاني بنبرة ملؤها التحدي والوعيد: «ان زمن التهديد قد ولى، وان البرلمان الكردي قد قرر ان يبقى الآن ضمن اطار الفيدرالية، وفي أية دقيقة يرى هذا البرلمان والشعب الكردي ان مصلحته مع اعلان الاستقلال، فاننا سنعلن ذلك من دون ان نخاف من أحد».

مر علم العراق الحديث بأربعة مراحل كبرى، عبرت كل واحدة منها (ولا تزال) عن رمزية ما، على خلفية من تزاوج عميق حكمت شكله ورمزيته ثلاثية «اللون والنجمة والخط»:

● فعلم العهد الملكي كان من أربع ألوان (الأسود والأبيض والأخضر) متداخلة بمثلث أحمر يحمل نجمتين بالوسط بارزتين.

● وعلم ثورة تموز (يوليو) 1958 زواج بين الأخضر والأبيض والأسود، يتوسط هذا الأخير قرص للشمس داخل نجمة ثمانية، والكل مستمد من التراث البابلي القديم.

● وعلم انقلاب 1963 حمل نجمات ثلاث (في اشارة للوحدة بين العراق ومصر وسورية) وأضاف الرئيس صدام حسين عبارة «الله أكبر» بخط يده ووضعها بين النجمات.

● أما علم ما بعد التاسع من نيسان (ابريل) للعام 2003، فقد أبقى على العلم العراقي كما هو، ليتم فيما بعد ذلك بفترة قصيرة، تصميم علم جديد على شكل هلال باللون الأزرق الفاتح على خلفية بيضاء وخط باللون الأصفر بين خطين باللون الأزرق بالجزء السفلي للعلم... حتى اذا اشتدت الاحتجاجات الشعبية بشأنه (كونه يحيل في ألوانه على علم اسرائيل) تمت العودة لعلم «الله أكبر»، مع الغاء الخط الذي كتب به الرئيس صدام حسين العبارة. واذا كان العلم الحالي يرمز، في ذهن الأكراد ولربما في تصور العديد من العراقيين، الى النظام السابق، فان استبداله أضحى بالنسبة لهم عنصر الاجهاز النهائي والأخير على «النظام البعثي الذي حكم البلاد بالحديد والنار» لأكثر من ثلاثة عقود من الزمن.

ولئن كنا لا نستطيع المزايدة على هذا الفصيل العراقي أو ذاك في تظلمه وتذمره مما يشير الى النظام السابق، وممارسات أمر الرئيس العراقي بجزء منها وتم الجزء الأكبر في غفلة منه (لكنها تمت مجتمعة في سياقات تاريخية محددة هي التي حكمتها)، فاننا لا نستطيع أيضا ان نتجاوز على السياق العام الذي أتى فيه قرار رئيس اقليم كردستان باستبدال العلم العراقي الحالي بعلم ثورة شباط (فبراير) للعام 1958:

فالقرار أتي في سياق من التناحر الطائفي بات الكل في ظله مع الكل ضد الكل، وبات اقليم كردستان المنطقة الجغرافية الوحيدة التي تعيش في أمن وأمان، بمنأى عما يجري بباقي العراق جملة وبالتفصيل.

ولما كان الأمر كذلك، فان حكومة الاقليم باتت غير مهووسة بالعامل الأمني ولا بالتواجد الأجنبي ولا بالاقتتال الطائفي ولا بالتصفيات على الهوية... هي مهووسة بتسريع وتيرة تنفيذ أجندتها في ظرف يتراءى لها انه الأمثل والانسب والانجع سياسيا فضلا عن كل ذلك، ناهيك عن مواءمة الظرف الاقليمي والدولي وتطابقه مع أجندات التقسيم والانفصال حيثما خدمت استراتيجية هذه القوة الكبرى أو تلك.

هي (حكومة كردستان أقصد) تبدو كما لو انها تسابق الزمن لاستكمال ما تبقى لها من عناصر بناء مقومات «الدولة ذات السيادة الكاملة»، حتى اذا برز بالأفق (على مستوى العراق أو محيطه المباشر) ما يشي بالسوء، انسلخت عن «الجزء المريض» وأقامت متاريس التصدي للعدوى الواردة... ألم يقل مسعود البارزاني بهذه النقطة: «ان الأكراد سيعلنون الاستقلال عن العراق اذا ما اندلعت حرب أهلية»؟

والقرار يأتي في سياق استباق الحل الفيدرالي المزمع اعتماده على خلفية من نظام الأقاليم الذي سينشطر العراق بموجبه لا محالة الى مجموعة من الدويلات داخل «دولة مركزية» منزوعة السلطات، هشة المفاصل والقرار، غير مهابة الجانب، عبارة عن نقطة ببغداد تعطي الانطباع الواهم بانه ما يزال ثمة بالخريطة دولة تسمى العراق.

بالتالي، فاذا تسنى لحكومة كردستان ان تضم كركوك (وهي النقطة الأخيرة العالقة بعد العلم) الى «حدودها الجغرافية النهائية»، فستكون بذلك قد ضمنت مصادر الثروة الكافية لاعلان الدولة وتوفير مقومات استمرارها بالآماد البعيدة.

والقرار يأتي، فضلا عما سبق أو بامتداد له، في ظرفية العجز الأمريكي المؤكد وفشله المدوي في فك خيوط «المعضلة العراقية»، وتطلع الادارة الأمريكية لتلمس طرف في القشة (وستكون الفيدرالية حتما) للقول بنجاح ما أتت من أجله سيما لو استتبع ذلك بعض من الاستقرار ولو مؤقتا.

لا تبدو حالة كردستان هنا كمدخل أساس لذات التطلع فحسب، بل تبدو للادارة الأمريكية ولكانها الانموذج الذي في اعتماده بكل العراق تهدأ الأمور وتستتب، ليتسنى بذلك للادارة الأمريكية مباشرة ما جاءت من أجله للمنطقة... أي النسج بدول أخرى على الحالة العراقية.

وعلى هذا الأساس، فان مسألة العلم لا تبدو لنا مستقلة عما يجري أو عما يراد له ان يجري حالا وبالمستقبل، بل هي بالمحصلة الأولية تهيئ للعراقيين (كل العراقيين) ليس فقط لاستساغة مبدأ الفيدرالية والقبول بها كشكل من أشكال التنظيم السياسي جديد، بل وأيضا التسليم بان الشكل اياه انما يتأتى من التوافق بين المكونات السياسية والدينية والعرقية والطائفية القائمة، ونتاج عقد ضمني يعطي لمكون أو أكثر حق الطعن فيه والبناء على النقيض منه... وهو ما تشدو اليه حكومة كردستان قلبا وقالبا، حيث لا تمثل مسألة العلم الا المظهر الذي يبطن ويخفي الجوهر...جوهر تطلع الأكراد للانفصال عن جمهورية العراق.

بالتالي، فان انزال الأكراد للعلم العراقي قد تقرر ليس فقط لكونه يرمز الى زمن الرئيس صدام حسين، ولكن بالأساس كتمهيد لصياغة علم سيكون في الأزمان القريبة لا قدر الله علم «جمهورية كردستان» أو ما شابه ذات التسمية.

ملحوظة: لا يزال المغرب يعيش لحد اليوم على علم صممه المارشال ليوطي عندما كان لفرنسا الوصاية عليه. لم يتنكر له المغرب المستقل، بل اتخذه رمزا وقاوم الوصاية الفرنسية في ظله... بل بات من حينه تعبيرا عن مقاومة المغاربة للتواجد الفرنسي.

* باحث وأكاديمي من المغرب
mailto :elyahyaoui@elyahyaoui.org

البابا.. وسيناريو الإلهاء المتعمد

اكرام يوسف*

■ عندما قامت هوجة الادانات والاستنكارات لتصريحات البابا بنديكت السادس عشر ـ والتي أقل ما يقال عنها انها نابعة عن جهل وغباء معا ـ تذكرت «فرح العمدة» الذي يدعى له كل أهل القرية .. فينشغلون بمجاملة العمدة رقصا وزمرا، والانكباب على أطايب الطعام الخاص بمثل هذه الأفراح تاركين بيوتهم ليعبث فيها لصوص من قرى أخرى..وتذكرت أيضا ما كتبته من قبل عن لعبة كان الكبار يلعبونها معنا ونحن صغار ـ لا أعتقد أنها تجدي مع صغار اليوم بما يمتلكون من دهاء لم نكن نملكه ـ عندما نتشبث بشيء ما من أشياء الكبار ولا نريد أن نتركه.. فاذا بشخص كبير يقول للطفل «بص شوف العصفورة!» ليلتفت الطفل الي حيث أشار الكبير ويتلهى لحظة عما في يده وتكون هذه اللحظة كافية لأن يلتقط الكبير الغرض المطلوب ويخفيه عن عين الصغير.. ولأنني لم أعد أخجل من اتهامي بالايمان بنظرية المؤامرة.. خاصة بعدما أفصحت قوى الاستعمار العالمي عما تحيكه لنا من مؤامرة في وضح النهار ـ ولا تحاك بليل ـ وقال القوم بملء أفواههم انهم يسعون لاعادة رسم خريطة المنطقة وتشكيل ما أسموه مرة الشرق الأوسط الكبير ومرة أخرى الشرق الأوسط الجديد..أجد نفسي في غير حاجة لانتقاء الكلمات المخففة لأقول ان ما فعله هذا البابا لا يخرج في نظري عن سيناريو مكرر داخل سياق واحد؛ هو افتعال ضجة عاطفية وانفعالية بين حين وآخر كلما كان القوم بصدد تنفيذ جانب من أجندتهم الرامية في نهاية الأمر للسيطرة على كل مقدراتنا وثرواتنا ..وتثبيت أقدامهم في موقعنا الاستراتيجي الذي كان نعمة من الله فأحلناه ـ بغفلتنا واستغفالنا معا ـ الى نقمة ووبال. وأظن ـ وبعض الظن من حسن الفطن ـ أن من كتبوا خطبة البابا الأخيرة لم يكونوا بعيدين عن هذا المخطط ـ على الأقل كأدوات؛ ان أردنا حسن الظن بشخص البابا نفسه واعتبرناه غير مشارك ـ ولننظر معا بهدوء الى بعض الملابسات: قيلت الخطبة يوم الخميس. ويعرف جميع من في الأرض أن اليوم التالي له يوم عيد بالنسبة للمسلمين في سائر أرجاء المعمورة، يقيمون فيه صلاتهم الجامعة التي يكونون فيها أقرب ما يكونون الى ذروة الاحساس بالانتماء الديني والرغبة في التقرب الى الله.. ويصبح للعبارات الحماسية في خطبة الجمعة فعل السحر في قلوب المؤمنين، فتلهب مشاعر الغيرة على العقيدة والرغبة الصادقة في الجهاد والفداء.. ولا شك أن ما قيل من عبارات استفزازية ومستنكرة في خطبة البابا ـ سواء كانت عن جهل وغباء وحسن نية من بيندكت؛ وتواطؤ كتبة الخطبة، أو عن تواطؤ الجميع ـ لم يكن مستغربا معه أن تثور ثائرة ملايين المسلمين في كل أصقاع الأرض الذين حركتهم غضبتهم للدين وعاطفتهم المتأججة لاتخاذ مواقف انفعالية في معظمها، تراوحت بين ادانة واستنكار ومطالبة باعتذار، الى دعوات للقصاص؛ وصلت ببعض الموسوسين الى دعوات لاغتيال البابا، واشعال حرائق في كنائس وبيوت عبادة يذكر فيها اسم الله. وجرى ذلك حتى في الأراضي التي باركها الله حول المسجد الأقصى، وحيث كان لكنيسة المهد موقفها المشهود يوم حمت المناضلين الذين استجاروا بها ورفضت تسليمهم لأعدائهم، وتحملت في سبيل ذلك القصف.

ورغم البيانات القوية والنبيلة التي صدرت عن رموز مسيحية مثل الأب عطا الله حنا في فلسطين والذي قال بصوت جهوري جاد سمعه كل من تابع الأحداث على شاشة الجزيرة «نحن نرفض أي اهانة للاسلام والمسلمين من أي جهة كانت، ونطالب الفاتيكان بتوضيح» وكرر نيافته ما نعلمه جميعا من أن هناك مخططات تستهدف اذكاء الفتنة بين أبناء الوطن الواحد لتفتيت جهود المدافعين عن هذا الوطن، ورغم تصريحات مماثلة من زعماء الكنائس الشرقية؛ مما دفع رجال الفاتيكان لمحاولة الالتفاف على «سقطة» البابا، ولكن دون اعتذار صريح، مما يعني أن تستمر «الهوجة» فترة أطول، تفعل فيها سياسة «فرق تسد» أفاعيلها بين أبناء الوطن الواحد.

لم تكن عبارة «بوش» عن «الحرب الصليبية» زلة لسان.. ولم يكن صامويل هنتنغتون يبحر في سماء الفذلكة الفكرية عندما تحدث عن «صراع الحضارات» ولا فوكوياما عند حديثه عن نهاية التاريخ.. ولم يكن البابا بالسذاجة التي يريدون تصويرها لنا عندما خطب عشية يوم الجمعة مهاجما عقيدة أكثر من مليار انسان على هذه الأرض، معظمهم يعيشون ـ بالمصادفة ـ في مواقع استراتيجية تضمن سهولة وصول ذراع العسكرية الأمريكية والصهيونية الى من تسميهم «محور الشر» في كوريا الشمالية وايران.. وتضمن الوقوف بوجه العملاق القادم والذي يشكل خطرا قادما من الشرق اسمه الصين؛ فضلا عن وضع القدم في أماكن تطل عن كثب على الدولتين النوويتين في شرق آسيا «الهند وباكستان» وفضلا عن هذا الموقع الاستراتيجي هناك الثروات الطبيعية الضخمة التي تضمن السيطرة على منابعها استمرار بقاء الاحتكارات العالمية الضخمة .. واستمرار تدفق الثروات على جيوب القوى الصهيوأمريكية، التي تسيطر ـ بالمصادفة أيضا ـ على معظم هذه الاحتكارات ان لم تكن جميعها. لا أعتقد أنني أبالغ في الخيال عندما أرى أن ما حدث يوم الخميس الماضي مقصود منه جر المسلمين والعرب بالتحديد الى معركة حماسية يستنفذون فيها طاقاتهم، وتصرفهم عن الانتباه لما يخطط لهم بالفعل على أرض الواقع.. ولذلك لا أصدق أبدا فكرة الحرب على الدين التي نجحوا في ترويجها بيننا.

فقوى الاستعمار لا تهمها الأديان.. أي أديان!.. ولا تهدف للتبشير بأي دين لتحارب دينا آخر.. ولا أدل على ذلك من أن أصحاب الدين الأقل عددا في العالم .. والذين لا يبذلون أي جهد للتبشير به.. بل ان عقيدتهم لا تقبل المتحول لديانتهم ان لم تكن أمه على نفس الدين.. هم أصحاب السيطرة الفعلية على الساحة العالمية.. هي بالفعل ليست حربا دينية!.. ولكنها حرب للسيطرة والهيمنة .. غير أن القوم تلمسوا فينا النقطة التي يمكن أن تثيرنا وتدفعنا لاستنزاف قوانا وانفعالاتنا..وتصرف أنظارنا عن أجندات تنفذ على الأرض.. هناك مخططات لتصفية القضايا الفلسطينية واللبنانية والعراقية.

وتمهيد الطريق لظهور الشرق الأوسط الجديد بزعامة الكيان الصهيوني.. ومطلوب منا جميعا أن نتخلى عن الهوية العربية ـ بالتحديد ـ حتى نصبح كلنا سواء ..لا فرق بين عربي وصهيوني.. نتفق جميعا في أن هويتنا «شرق أوسطية» والطريق الأسهل لتنفيذ هذه الأجندة بهدوء ودون ممانعة..هو شغل العرب ـ المعروفين بأنهم عاطفيون وتجذبهم المعارك الانفعالية ـ بفتن طائفية بين مسلمين ومسيحيين وبين شيعة وسنة وفتن عرقية بين أكراد وعرب وتركمان ونوبيين وأمازيغ.

* كاتبة صحافية ومترجمة مصرية
ekramegypt@yahoo.com

من الليبرالية الى الطائفية

معقل زهور عدي*

■ أسفر سقوط بغداد أمام الدبابات الأمريكية عن انبعاث تيار ليبرالي جديد في سورية والمنطقة العربية، تيار بدأ يتبلور شيئا فشيئا ويطرح أفكاره في البداية متفرقة وعلى استحياء الى ان جاء الوقت الذي وجد فيه هذا التيار من يعبر عنه صراحة بصورة مباشرة أمثال السادة : شاكر النابلسي، بشير البكر، جورج كتن، وليد مبيض وغيرهم، وبصورة غير مباشرة مثل بعض أطراف قوى اعلان دمشق وبعض المثقفين والكتاب الذين لا يتعبون من النوسان بين الخط الليبرالي والخط الوطني الديمقراطي.

لسنا الآن في وارد استعراض أفكار تيار الليبرالية الجديدة ومناقشتها وسبق ان تعرضت لهذه المسألة في عدة مقالات ابتداء من (الليبرالية السورية الجديدة في طريق التكون ـ نشر في عام 2004) وصولا الى (أثر الحرب في لبنان في المعارضة السورية ـ ايلول / سبتمبر 2006)، المسألة التي أود اثارتها في هذا المقال هي السياق الموضوعي الذي يدفع هذا التيار نحو الطائفية.

للوهلة الأولى يبدو الميل الطائفي مناقضا للمبادئ العلمانية والديمقراطية للتيار الليبرالي، ويبدو الحديث عنه شكلا من أشكال الاتهام والتجني غير المستند لمبررات منطقية.

من أجل ذلك أرغب في مناقشة الموضوع بقدر من الهدوء والروية.

يولد التيار الفكري ـ السياسي بفعل مؤثرات خارجية وعوامل داخلية (اقتصادية ـ اجتماعية ـ سياسية ـ ثقافية) ويسعى مع تشكله لانتاج وعي يجد ملاذه النهائي في القيم والمثل الانسانية، لكن مسار التيار لا يتحدد بنمط الوعي الذي أنتجه في لحظة تشكله ولكن عبر الممارسات السياسية الواقعية بالتفاعل مع القوى الاجتماعية والسياسية الأخرى في سياق تاريخي محدد.

هكذا نشهد في كثير من الأحيان تعديلات متلاحقة تبعد تيارا سياسيا معينا عن أفكاره الأولية ليصنع تراكم تلك التعديلات خطا سياسيا واقعيا لا يعبأ كثيرا بمرجعيته النظرية.

القومية يمكن ان تتدهور الى شوفينية، وديكتاتورية البروليتاريا الى ديكتاتورية الحزب والأجهزة الأمنية، والديمقراطية الى مؤسسة لانتاج الحكام من طبقة واحدة وبخيارات محدودة للغاية، ما نرغب في متابعته هنا هو السياق الممكن لتحول الليبرالية الجديدة نحو الطائفية.

ليس الجوهري في الليبرالية الجديدة سعيها نحو الديمقراطية والحريات كتيار سياسي يستند الى قوى اجتماعية محددة ويعبر عن مصالحها وثقافتها، ولكن الجوهري هو الاعتماد على القوى السياسية العالمية لتحقيق المهمة الليبرالية، فالليبرالية الجديدة تعترف ضمنا بان حاملها الاجتماعي الداخلي غير موجود وبالتالي تسعى للاستعانة بحامل خارجي (المتغيرات العالمية أدت لتآكل السيادة المطلقة للدول وأعطت المجتمع الدولي حق مراقبة الدول المخالفة لشرائعه الانسانية والتدخل لتخليص الشعوب من أنظمتها المستبدة المتذرعة بالسيادة الوطنية لمنع محاسبتها – اقتراحات لبرنامج ليبرالي سوري ـ وليد المبيض وجورج كتن).

من تلك النقطة يغدو أساسيا تكيف الليبرالية الجديدة مع القوى الدولية النافذة والتي ليست في نهاية المطاف سوى الولايات المتحدة الأمريكية.

وبصورة أكثر وضوحا لا يجد مشروع الليبرالية الجديدة للتغيير أية فرصة له للحياة خارج تمفصله مع مشروع الولايات المتحدة للتغيير في المنطقة العربية.

وبحساب توازن القوى لا يملك تيار الليبرالية الجديدة أي ثقل حقيقي ذاتي في تحالفه التاريخي مع مشروع التغيير الأمريكي لذا فهو معرض بقوة للانجراف وراء مشروع التغيير الأمريكي ما ان يبدأ ذلك المشروع في مباشرة الوضع الداخلي السوري.

لقد أماطت الحرب على العراق اللثام عن حقيقة مشروع التغيير الأمريكي بالنسبة للعراق، ونحن لا نتحدث هنا عن الايديولوجيات أو العواطف ولكن عن التجربة الواقعية، فبغض النظر عن دعاوى الديمقراطية الجوفاء، ظهر مشروع التغيير الأمريكي في العراق كمشروع تدمير للدولة وتفكيك للمجتمع بتغذية الانقسامات العرقية والطائفية وتغذيتها ورعايتها (اقترح توماس فريدمان احد منظري السياسة الأمريكية اعطاء جائزة نوبل للسيستاني! لماذا؟ للدور الذي لعبه في تفريق الشيعة عن السنة، وقال فريدمان في مقال آخر: اذا اتحد السنة والشيعة انتهت اللعبة) وقد عبر مارتن اندك بصراحة عن الموقف ذاته: (ينبغي للولايات المتحدة استخدام سياسة قديمة جديدة في العراق هي سياسة فرق تسد).

من المعروف على نطاق واسع ان الدستور العراقي الحالي الذي يكرس الطائفية ويؤسس لانفصال الجنوب فعليا قد وضع في الولايات المتحدة واقتصر دور العراقيين على ترجمته والموافقة عليه (يمكن مراجعة دراستي المنشورة حول الدستور العراقي في موقع مركز دمشق للدراسات الحقوقية)، كما ان ميليشيا بدر وغيرها من الميليشيات الطائفية تعمل بتنسيق مع الاحتلال الأمريكي عن طريق وزارة الداخلية.

فاذا كان الأمر كذلك بالنسبة للعراق فلماذا سيكون مشروع التغيير الأمريكي بالنسبة لسورية شيئا مختلفا في الأهداف؟

هل هي صدفة ان يطل علينا السيد فريد الغادري أوثق السياسيين السوريين صلة بالادارة الأمريكية من قناة «الحرة» التابعة للحكومة الأمريكية ليبدأ مرحلة غير مسبوقة من بث السموم والشحن الطائفي البغيض؟

دعونا من السيد الغادري، ولكن اذا اتخذ مشروع التغيير الأمريكي تجاه سورية ذات المنحى العراقي فماذا بمقدور تيار الليبرالية الجديدة ان يفعل سوى التماهي معه بعد ان ربط مصيره به في تحالف تاريخي.

الخيار الآخر هو السعي لتعديل السياسة الأمريكية لجعلها أكثر ديمقراطية وأقل طائفية، ولكن الوزن السياسي للتيار الليبرالي لا يجعله في موضع التأثير في السياسة الأمريكية بل التكيف معها.

بهذا المعنى لا يتمثل خيار تيار الليبرالية الجديدة في تفادي الانزلاق نحو الطائفية فهو مسار اجباري ولكن خياره يمكن ان يكون في كيفية انتاج ليبرالية ـ طائفية تحتفظ ولو بنكهة الليبرالية.

مثلا يمكن ان يتحول تيار الليبرالية الجديدة في أي وقت لطرح الديمقراطية ـ الطائفية على الطريقة اللبنانية كنموذج (ليس كاملا ولكنه واقعي).

أما التيار الوطني ـ الديمقراطي فلديه خيار آخر هو خيار الديمقراطية ـ الوطنية، خيار مقاومة مشروع التغيير الأمريكي الذي هو مشروع استعماري جديد لا يحمل سوى التدمير والتفكيك والهيمنة، وفضح كل أدواته ومرتكزاته والوقوف بصلابة في وجهها حتى لا يجد الأمريكي حصان طروادة جديدا أو معبرا للدخول يكمل ما فعله الاستبداد من نخر في بنية المجتمع وتدمير لقواه الحية طوال عقود طويلة.

* كاتب من سورية

هل عقدت أنجيلا ميركل العزم على اعلان الحرب على العرب؟

عبدالسلام بنعيسي*

■ كانت انجيلا ميركل واضحة وصريحة ومباشرة في تصريحها. فلقد جاء التصريح مختصرا ومركزا، وأشار، بلا لبس ولا غموض ولا تلعثم، الى أن وظيفة القوات الألمانية المشاركة في قوات اليونيفيل تهدف الى توفير الحماية لاسرائيل، وتأمين استمرار حقها في الوجود. فتبعا لمنطق المستشارة الألمانية، فان اسرائيل دولة معتدى عليها، ومهددة في وجودها من طرف لبنان. وقوات اليونيفيل، على الأقل في شقها الألماني، ستسهر على تحجيم هذا التهديد، لتقليصه وازالته، لاشعار اسرائيل بأنها محمية ومعززة، ولا داعي لأن ينتابها أي احساس بالقلق، أو الخوف، أو الارتباك.

لبنان يعتبر أن اسرائيل دولة معادية له، وهو في حالة حرب معها، واذا كانت الحرب قد توقفت بين الطرفين، فمن الجائز أن تندلع المواجهات بينهما، في أي وقت من الأوقات، سواء لهذا السبب أو لذاك. وتأسيسا على كلام ميركل، فان القوات الألمانية الموجودة في المياه الاقليمية اللبنانية، سوف لن تبقى على الحياد مكتوفة الأيدي تتفرج اذا ما حصل اشتباك بين الطرفين، فمن الوارد جدا، أن قوات اليونيفيل الألمانية ستنجر الى القتال، بصيغة من الصيغ التي تستوجبها الظروف، الى جانب الاسرائيليين.

فلقد قالت ميركل في البرلمان الألماني، انها ليست محايدة فيما يتعلق بصراع القيم في المنطقة، ولا شك أن تصريحها هذا يشكل التزاما قويا من طرفها أمام المشرّعين الألمان والرأي العام الوطني الألماني، التزام صادر عنها، يجبرها على التقيد به، للوقوف الى جانب اسرائيل واسنادها، والدفاع عنها بكل الوسائل الممكنة، اذا ما اندلع القتال مع لبنان، خصوصا اذا مالت الكفة في القتال صوب المقاومة اللبنانية.

نحن اذن لسنا الآن أمام قوات أممية جاءت الى لبنان للفصل بشكل حيادي وموضوعي بين قوتين لدولتين متنازعتين، بغية المساعدة على استتباب الأمن والاستقرار، فنحن أمام قوات منحازة الى الطرف الاسرائيلي الذي شن الحرب، ويحتل الأرض، ويمارس الاعتداءات اليومية على جيرانه، وهذا الاصطفاف الألماني الى جانب اسرائيل ليس له من معنى، سوى تشجيع المعتدي على الاستمرار في عدوانه، ولن يؤدي ذلك، الا الى بقاء الوضع متأزما، وقابلا للانفجار في أي لحظة.

لقد جرت العادة أن قوات الفصل الأممية التي يتم وضعها بين دولتين في حالة حرب، تكون قوات محايدة، وليست لها مواقف منحازة لهذه الجهة أو تلك، لتأمين قيام هذه القوات بمهمتها في الفصل والمراقبة، بشكل مهني، يطمئن اليه الطرفان اللذان يكونان في تصادم، ويتعاونان بناء على ذلك، بشكل ايجابي مع تلك القوات، لمساعدتها على انجاز المهمة الموكولة اليها.

فشرط الحياد ضروري، وحيوي، وحاسم، اذا كان المراد تأمين نجاح قوات الفصل في القيام بالوظيفة التي كلفت بانجازها من طرف المنتظم الدولي. فهذا شرط يفترض أن من المستحيل تجاوزه أو مجرد الاستهانة به والتقليل من شأنه لضمان النجاح للقوات الأممية في أداء واجبها. أما اذا كانت القوات الأممية متحيزة بقرار رسمي معلن عنه في وسائل الاعلام، فان نجاحها في القيام بمهمتها، بالشكل الذي يُرضي جميع الأطراف، يصبح أمرا صعبا ان لم نقل مستحيلا.

عقب تصريح ميركل يمكننا القول، انه لا يجوز اعتبار هذه القوات تابعة للأمم المتحدة، وتقع تحت ت